لماذا نتعذب ؟

منذ بداية البشرية والإنسان يعمل من أجل حياة أفضل، لكنه ما زال يعاني ويمرض ويغضب، ولم يحصل على نتائج كافية يمكن أن تبدد لديه المخاوف أو تفسر له الهواجس. فهناك أمور كثيرة يصعب تفسيرها، ويصعب تجاهلها أو التخلص منها.

هل نحن السبب ؟ أم سلوكنا؟ أم أسرتنا أو محيطنا؟ وما الذي يُعتبر مصدراً لتعاستنا؟. ولماذا نتعذب ما دمنا لا نعمل إلا الخير؟. وإذا كانت السعادة مستحيلة فأي خير يجنيه الناس من الحياة الدنيا؟

يقول جلال الدين الرومي: " وهكذا أنت في هذه الدنيا، تطلب ليلاً نهاراً الهدوء والراحة، الحصول على ذلك في الدنيا غير ممكن، وبرغم ذلك لا تبقى لحظة واحدة من دون طلب، ومثل هذه الراحة حتى عندما تجدها في هذه الدنيا كالبرق الذي يمضي ولا يستقر، وعندئذ أي برق يكون؟ برق مملوء بالبرد، مملوء بالمطر، مملوء بالثلج، مملوء بالمحن. هناك سوء فهم عند أكثر الناس، هو أن الحياة الدنيا موطن للراحة وللسعادة، وللأمان، لذلك تجد أكثر الناس يبحثون عنها ولا يجدونها فيحزنون وينقمون، وقد يسبون الدهر والناس، وقد يعيشون حياتهم بالكآبة والمرارة... إذا وجدت في حياتك وسعيك ألماً أو حزناً أو هماً أو غماً فاعلم أنها قوانين الحياة ونواميسها، وإذا قرأت على وجوه الناس وفي أفعالهم زهداً بك أو تخلياً عنك أو عدواناً عليك فاعلم أنها قوانين البشرية ونواميسها، وكلما زاد طلبك وطمعك بما في الدنيا، كلما وجدت الحياة أصعب، وكلما وجدتها تحتاج إلى عزيمة أو صبر أكثر. لو قرأت وجوه الناس وسمعت منهم وعنهم آلامهم

ومكابدتهم، من أقلهم فقراً إلى أكثرهم غنى، لعرفت أن هذه الدار ليست دار نعيم وسرور وحبور، ومع أن جهوداً تُبذل في سبيل تزيين هذه الحياة الدنيا، ومع أن الآلاف يعملون على تزييف الحقيقة بالفنون وغيرها، من أشكال الالتذاذ بالدنيا، فإن أكثر الناس ترى على وجوههم ملامح الرعب وآثار التعب والقلق، بل إننا نستطيع أن نقول إن جهود من يحاول إظهار الحياة الدنيا بدار النعيم والسعادة، وهم بهذا لا يخدمون الناس بل يسرقون ما في جيوبهم من مال، أدت إلى زيادة ثقل الأوزان والأوزار على الأكتاف، لأن طلب السعادة في دين هؤلاء يحتاج إلى بذل المزيد من المال والجهد".[98]

السعادة الحقيقية عند جلال الدين الرومي هي سعادة الروح، وكل متاع الحياة هي حجاب أسدله الله على نفسه حتى يختبر الإنسان إذا كان سيخدع بما تميل إليه النفس من شهوات وطيبات وينسى جوهر الحق!

فيقول: "إن أكثر الناس يقعون ضحية عماهم، ينشغلون بالمقصودات الوسيطة والمطلوبات الدنيوية وينسون أصل التوق ومنبعه. كل هذه الطيبات والمقصودات مثل السلم ليست مكاناً للإقامة والاستقرار بل للمرور فقط، في السعادة من يستيقظ وينتبه مبكراً حتى يقصر عليه الطريق الطويل ولا يضيّع عمره في درجات السلم هذه... وهم بجلاء صورة توقهم إليه وبفهمهم حقيقته، يهنؤون حتى في انشغالهم بالمطلوبات الدنيوية لأنهم يميزون الخبيث عن الطيب، فلا يتوقون إلا إلى الطيبات التي تصلح أن تكون درجات في سلم أو معراج السماء إلى المحبوب الأول... أما الذين هم في عماهم يعمهون فيغرهم بريق درجات السلم عن الصعود فيه والعروج عبره، فينسون أصل توقهم حتى لا يبقى حاضراً في أذهانهن إلا التوق إلى مرغوبات الدنيا، فهم يفقدون لذة معاينة الحق والتوق إليه في دنياهم قبل آخرتهم"[99].

---

[98]- جلال الدين الرومي 2 ص 295- 297.

[99] - جلال الدين الرومي 1 ص 270- 272.

وإذا عدنا إلى فلسفة الشاعر أبو العلاء المعري سنجد الحياة مصدر بؤس وتعاسة، والآثام والشرور كامنة في كل موجود. فلم يترك أبو العلاء أي رجاء أو أمل من هذه الحياة. ولكن لتشاؤم أبو العلاء أسباباً اجتماعية وشخصية، فكان فاقداً لنعمة البصر، وكان يعيش في مجتمع قائم على الخديعة والزيف.

" كم وعظ الواعظون منا وقام في الأرض أنبياء

وانصرفوا والمبلاء باقٍ ولم يزل داؤك العياء

فلا أمل من إصلاح للناس أو صرفهم عن ارتكاب الآثام واقتراف الذنوب. ولكن خلف كل هذا العالم وهذه الناس خالق مبدع يتحكم بالمصير، ومن يتقي الله فهو السالم:

" فلك يدور بحكمة وله بلا ريب مديرْ

فالهلال المنيف والبدر والفرقد والصبح والثرى والماء

والثريا والشمس والنار والنثرة والأرض والضحى والسماء

هذه كلها لربك ما عابك في قول ذلك الحكماء

إذا آمن الإنسان بالله فليكن لبيباً ولا يخلط بإيمانه كفراً

إذا كنت بالله المهيمن واثقاً فسلم إليه الأمر في اللفظ واللحظ

قد طال في العيش تقييدي وإرسالي من اتقى الله فهو السالم السالي"[100].

المعري الذي كان فاقدا لبهجة النظر تألم وغاص في العزلة والتشاؤم، ولكنه لم يفقد بهجة البصيرة وانفتاح العقل فوصف كل مفاسد عصره بعقلانية وشواهد ملموسة، وانتهى إلى تفويض أمره إلى الله والقبول التام بالقدر.

[100]- أنظر جدلية العلاقة بين الفلسفة والأدب ص 89.